الفصل الثاني

الحملة الإنجليزية على مصر سنة ١٨٠٧ وإخفاقها

لم تكد مصر تنجو من خطر رجوع المماليك إلى الحكم حتى واجهت أزمة أشد وأعظم خطرًا، وهي الحملة التي جردتها عليها إنجلترا سنة ١٨٠٧م لاحتلالها وتحقيق مطامعها في وادي النيل.

أسباب الحملة

ترجع أسباب تلك الحملة إلى انتقاض العلاقات بين إنجلترا وتركيا وما اعتراها من الجفاء والعداء لانحياز تركيا إلى جانب فرنسا، فنقمت إإنجلترا من الحكومة التركية تلك السياسة واتفقت هي والروسيا على الكيد لها، وساءت العلاقات بين الدولتين حتى انتهت بإعلان الحرب بينهما، ودخل الأسطول الإنجليزي بقيادة الأميرال «دوكورث» (Duckworth) بوغاز الدردنيل، واعتزمت إنجلترا أن تضرب تركيا في مصر فتنال بذلك غرضين؛ وهما إذلال تركيا من جهة، وتحقيق أطماعها في مصر من جهة أخرى.

حالة الأفكار في القاهرة والأقاليم

جردت إنجلترا حملتها على مصر بقيادة الجنرال «فريزر»، وكانت على اتفاق مع محمد بك الألفي أن يؤيدها ويشد أزرها على أن تكفل للمماليك الاستيلاء على حكومة البلاد. لكن مصر لم تستسلم لتلك الغزوة؛ بل قاومتها بكل ما أوتيت من حولٍ وقوةٍ، وظهرت الأمة بذات الروح التي نهضت بها بإزاء الحملة الفرنسية؛ أي بروح المقاومة والبذل والتضحية والدفاع والمحاماة عن الذمار، حتى انتهت الحملة بالخيبة والفشل.

جاءت مصر أخبار الحملة الإنجليزية قبل قدومها، وعلم الناس بها من الرسائل الواردة من الأستانة، فأخذوا يعدون لمقاومتها كاستعدادهم لمقاومة الحملة الفرنسية

التي تقدمتها بنحو عشر سنوات، وتولى السيد عمر مكرم زعامة المقاومة الشعبية بما عهد فيه من شجاعة وحزم وإخلاص.

ذكر الجبرتي حالة البلاد قبيل مجيء هذه الحملة؛ فقال (في حوادث ذي الحجة سنة ١٢٢١هـ، فبراير سنة ١٨٠٧م): «شرع أهل الإسكندرية في تحصين قلاعها وأبراجها، وكذلك أبو قير، وأرسل كتخدا بك (نائب محمد علي باشا) من يتقيد ببناء قلعة بالبرلس، وحصل بمصر قلق ولغط، وغلت الأسعار في البضائع المجلوبة، وعملوا جمعيات في بيت كتخدا بك وبيت السيد عمر النقيب، واتفقوا على إرسال تلك المراسلات إلى محمد علي باشا بالجهة القبيلة صحبة ديوان أفندي (سكرتيره)».

أقبلت العمارة الإنجليزية إلى مياه الإسكندرية في شهر مارس سنة ١٨٠٧م، فأرسل السعاة أخبار مجيئها إلى القاهرة، وكان محمد علي باشا غائبًا عنها يقتل المماليك في الصعيد، فلما استفاضت أخبارها هاجت الخواطر وقلق الناس، واجتمع ولاة الأمور يتشاورون فيما يجب عمله للدفاع عن البلاد.

قال الجبرتي: «فلما وصلت تلك المكاتبات اجتمع كتخذا بك وحسن باشا وبونابارته الخازندار وطاهر باشا والدفتر دار والروزنامجي وباقي أعيانهم، وذلك من الغروب، وتشاوروا في ذلك، ثم أجمع رأيهم على إرسال الخبر بذلك إلى محمد علي باشا يطلبونه للحضور هو ومن بصحبته من العساكر ليستعدوا لما هو أولى وأحق بالاهتمام، ففعلوا ذلك وانصرفوا إلى منازلهم بعد حصة من الليل، وأرسلوا تلك المكاتبة إليه في صبح يوم الجمعة صحبة هجانين، وشاع الخبر وكثر لغط الناس في ذلك».

قلنا: إنَّ الحملة الإنجليزية جاءت على اتفاق سابق مع الألفي زعيم المماليك؛ لكن الأقدار الإليهة قضت أن يموت الألفي قبل أن تهبط الحملة إلى مصر، ولو أنها تقدمت في مجيئها أربعين يومًا فجاءت والألفي على قيد الحياة وحوله تلك الألوف من المقاتلة، لكان محتملًا أن يتحول مجرى الحوادث في مصر؛ بَيْدَ أنها وصلت بعد موت

الألفي وتشتت أنصاره وانفضاض جيشه، فكان ذلك من الأسباب التي هيأتها العناية الإلهية بجانب المقاومة التي أبدتها مصر لإخفاق هذه الحملة.

خريطة مواقع الحملة الإنجليزية سنة ١٨٠٧

وترى فيها البلاد والمواقع التي ورد ذكرها في الفصل الثاني، والجهات التي مرت بها الحملة منذ نزول الجنود الإنجليزية بشاطئ العجمي (غربي الإسكندرية) إلى هزيمتهم في رشيد والحماد، والخريطة مرسومة حسب تخطيط سنة ١٨٠٧م، وتجد بها ترعة الإسكندرية التي كانت موجودة في ذلك العهد، وأنشئت مكانها ترعة المحمودية سنة ١٨١٩م، وقد أشرنا إلى تخطيطها في الخريطة بخط منقوط.

مجيء العمارة الإنجليزية

في أوائل مارس سنة ١٨٠٧م أقبلتْ سفينة إنجليزية إلى مياه الإسكندرية دون أن تخبر بأسباب حضورها، ولعلها كانت سفينة استطلاع لتعرف الحالة في الثغر، فلما كان

obeikan.com

(يوم ١٤ مارس) جاءت سفينة حربية أخرى واستدعت القنصل الإنجليزي[١]، فلبى الدعوة ومضى مسرعًا لمقابلة مَن فيها، ولم يكد يعود إلى الثغر حتى بادر بإنفاذ عدة من السعاة يحملون رسائل إلى جهات بعيدة، وقد ظنَّ الأهالي أنها مرسلة إلى الرعايا الإنجليز لاستدعائهم إلى الثغر، ولكن تبين بعد ذلك أنها مرسلة إلى البكوات المماليك في الصعيد لإخبارهم بقرب وصول الحملة البريطانية واستدعائهم إلى الوجه البحري، فدلت هذه الرسائل على أن الحملة الإنجليزية جاءت باتفاق سابق مع الألفي على أن يمدها المماليك بما لديهم من الرجال والعتاد.

قال الجبرتي في هذا الصدد: «وبعد موت الألفي بنحو الأربعين يومًا وصلت نجدة الإنكليز إلى ثغر الإسكندرية وطلعوا إليها، فبلغهم عند ذلك موت المذكور، فلم يسهل بهم الرجوع، فأرسلوا إلى الجماعة المصريين (يريد المماليك) ظانين أن فيهم أثر الهمة والنجدة يطلبونهم للحضور ويساعدهم الإنكليز على ردهم لمملكتهم».

وقال في موضع آخر ما خلاصته: «إنَّ هذه الطائفة من الإنكليز ومن انضم إليهم وعدتهم على ما قيل ستة آلاف لم تأت إلى الثغر طمعًا في أخذ مصر! بل كان ورودهم ومجيئهم مساعدة ومعاونة للألفي على أخصامه باستدعائه لهم واستنجاده بهم، وسبب تأخرهم في المجيء لما كان بينهم وبين العثماني من الصلح. فلما وقعت النفرة بينهم وبينه انتهزوا الفرصة وأرسلوا هذه الطائفة، وكان الألفي ينتظر حضورهم بالبحيرة، فلما طال عليه الانتظار وضاقت عليه البحيرة ارتحل بجيوشه مقبلًا، وقضى الله بموته بإقليم الجيزة، وحضر الإنكليز بعد ذلك إلى الإسكندرية فوجدوه قد مات، فلم يسعهم الرجوع فأرسلوا إلى الأمراء القبليين يستدعونهم ليكونوا مساعدين لهم على عدوهم، ويقولون: إنما جئنا إلى بلادكم باستدعاء الألفي لمساعدته ومساعدتكم، فوجدنا الألفي قد مات وهو شخص واحد منكم وأنتم جمع، فلا يكون عندكم تأخير في الحضور؛ فإنكم لا تجدون فرصة بعد هذه، وتندمون بعد ذلك إن تلكأتم».

---

(١) هو الماجور «ميست» Misset وكان قنصلًا عامًّا لإنجلترا في مصر.

يتبين من ذلك أن الحملة الإنجليزية على مصر سنة ١٨٠٧م كان باستدعاء الألفي واتفاقه مع الإنجليز على احتلال البلاد، وهذا يؤيد الحقيقة التي بسطناها في الجزء الثاني من «تاريخ الحركة القومية» وهي أن المماليك كانوا صنائع السياسة الإنجليزية، وظلوا صنائعها إلى أن استراحت البلاد منهم، ولعلك لاحظت في رواية الجبرتي قوله: «إن الإنجليز لم يأتوا إلى الثغر طمعًا في أخذ مصر ... إلخ». وهو قول من لم يدرك كنه السياسة الإنجليزية. والجبرتي معذور في عدم إدراكه حقيقة مقاصدها، فلم يكن قد بلاها، ولا عرف أسرارها، وهو في انخداعه بها أحق وأولى بالمعذرة ممن توهموا سنة ١٨٨٢م؛ أي بعد نيف وسبعين عامًا من هذه الحوادث أن الإنجليز جاءوا مصر للدفاع عن عرش الخديوية المصرية، وكان عليهم أن يفهموا أنهم إنما جاءوا ليحتلوا البلاد ويبسطوا نفوذهم وسيطرتهم فيها.

احتلال الإسكندرية

في (يوم ١٦ مارس) عادت السفينة الإنجليزية تتبعها بارجة كبرى وبعض السفن الأخرى، وألقت مراسيها بالميناء الغربية، ونزلا منها ضابطان طلبا مقابلة محافظ الثغر في ذلك العصر، واسمه «أمين أغا»، وهو من ضباط الأستانة، وكان متواطئًا مع الإنجليز أن يسلم لهم المدينة على رشْوة من المال، قال المسيو «مانجان» في كتابه: إنَّ الإنجليز قد اشتروا أمين أغا هذا بالمال. والذي أعطاه هذا المال هو قنصل إنجلترا، فلما قابله الضابطان النازلان من العمارة الإنجليزية اتفق معهما على أن يسلم المدينة دون مقاومة، ثم لم يكد يطلع يوم (١٧ مارس) حتى أقبلت العمارة الإنجليزية مؤلفة من خمس وعشرين سفينة بقيادة الأميرال «لويس» Lewis وسدت مدخل الميناء الغربية، وفي مساء ذلك اليوم أخذ جنود الحملة ينزلون إلى البر بشاطئ العجمي، ثم زحف الإنجليز على الإسكندرية وعسكروا تحت أسوارها، وأرسلوا فصيلة منهم لاحتلالة قلعة (أبو قير) شرقي الإسكندرية. وانقضى يومان في مفاوضات صورية بينهم وبين «أمين أغا» محافظ المدينة انتهت بأن سلم نفسه كأسير حرب ومعه حامية

المدينة وعددها نحو ثلاثمائة مقاتل، ودخل الإنجليز الإسكندرية ليلة (٢١ مارس) دون أن تطلق رصاصة واحدة.

هذا ما فعله «أمين أغا» محافظ الإسكندرية في ذلك العهد، ولعلك تذكر موقف السيد «محمد كُريم» حاكم الإسكندرية الوطني حين مجيء حملة نابليون سنة ١٧٩٨م، ومبلغ شجاعته في مقاومتها[١] وتقابل بين موقفه النبيل ومخزاة «أمين أغا» في استسلامه للحملة الإنجليزية سنة ١٨٠٧م، وأمين أغا هو من ضباط الأستانة؛ لأن الحكومة التركية كانت تعد الإسكندرية إلى ذلك العهد تابعة لها مباشرة، فكانت تعين حاكمها، وأما السيد محمد كُريم فقد كان في عهد الحملة الفرنسية حاكم المدينة الوطني، فقابل بين موقف الحاكم الوطني وشجاعته وجبن ضابط الأستانة ونذالته؛ تجد الفرق بين الاثنين عظيمًا.

استولى الإنجليز إذن على الإسكندرية دون حرب ولا قتال؛ لكن الجبرتي في إيراده أخبار تلك الحملة ذكر في يوميات (شهر محرم سنة ١٢٢٢هـ) ورود أنباء من الإسكندرية بوقوع قتال «وضرب بالمدافع الهائلة من البحر وهدم جانب من البرج الكبير، وكذلك الأبراج الصغار، وكل ذلك لم يكن سوى إشاعات باطلة كانت ترسب إلى القاهرة فيتناقلها النس كما تروج الإشاعات الكاذبة أثناء الحروب، ثم لا تلبث أن ينكشف بطلانها، والواقع أنه لم يحصل ضرب بالمدافع الهائلة ولا هدم جزء من البرج الكبير أو الأبراج الصغيرة، والجبرتي كان يذكر كل الإشاعات التي ترد أثناء وقوع الحوادث الخطيرة التي يدونها، فقد ذكر أيضًا أنهم «أشاعوا أن الإسكندرية ممتنعة عن الإنكليز، وأنهم طلعوا إلى رأس التين والعجمي، فخرج عليهم أهل البلاد والعساكر وجاربوهم وأجلوهم عن البر، ونزلوا إلى المراكب مهزومين وحرقوا منهم مركبين، وأنه وصلت إليهم عمارة العثمانيين والفرنساوية وحاربهم في البحر، وأحرقوا مراكبهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، ولم يبق منهم إلا القليل».

(١) انظر: الجزء الأول من «تاريخ الحركة القومية» الفصل الخامس.

ولم يكن شيء من ذلك صحيحًا ولا قريبًا من الواقع؛ بل كله مكذوب، وكان مصدره الإشاعات الباطلة، أو كما يقول الجبرتي بعد ذلك: «واستمر الأمر في هذا الخلط القبلي والبحري عدة أيام، ولم يأت من الإسكندرية سعاة ولا خبر صحيح». وبعد أن أورد الجبرتي تلك الإشاعات ذكر أنه «في ٢٠ محرم وردت الأخبار الصحيحة بأخذ الإسكندرية واستيلاء الإنكليز عليها يوم الخميس تاسع الشهر، ودخلوها وملكوا الأبراج يوم الأحد صبيحة النهار، وسكن صاري عسكرهم بوكالة القنصل». فالجبرتي في إيراده (الأخبار الصحيحة) لم يذكر أنه حدثت حرب أو قتال، ولا ضرب بالمدافع الهائلة ولا هدم للأبراج، وهذا يؤيد المصادر الصحيحة التي اتفقت روايتها على أن استيلاء الإنجليز على الإسكندرية قد تمَّ من غير مقاومة بفضل خيانة «أمين أغا».

كانت الحملة الإنجليزية مؤلفة من نيف و٦٠٠٠ مقاتل[1] بقيادة الجنرال «فريزر» fraser، ويتألف هذا الجيش من فرقتين: الأولى بقيادة الجنرال «ستوارت» Stuart، والأخرى بقيادة الجنرال «ويكوب» Wacop.

ولعلك تعجب كيف جازف الإنجليز بهذا العدد الضئيل في الحملة على مصر؛ في حين أن نابليون بونابرت لم يقدم على غزوها إلا بجيش مؤلف من ٣٦٠٠٠ من المقاتلة، وعمارة من أعظم الأساطيل البحرية، ولكن هذه الدهشة لا تلبث أن تزول إذا علمت أن الإنجليز كانوا يظنون أنهم لا يجدون في مصر مقاومة ذات شأن بسبب الاضطرابات التي مزَّقت شملها، وكانوا من جهة أخرى يعتمدون على قوات المماليك في مصر، ولذلك لم يصحبوا معهم قوة من الفرسان اكتفاءً بما يظاهرهم به صنائعهم المماليك، وكانوا يعتقدون أنهم لا يلبثون أن يطأوا أرض مصر حتى يسارع إليهم المماليك من أنحاء البلاد لملاقاتهم والانضمام إليهم، فلما دخلوا الإسكندرية ولم يروا

---

(١) اعتمدنا في هذا الإحصاء على الوثيقة رقم (٢٠) من وثائق الحملة الإنجليزية التي أخرجتها الجمعية الجغرافية في كتاب «مصر وإنجلترا، حملة سنة ١٨٠٧م» للمسيو دوان.

obeikan.com

لهم أثرًا أرسل إليهم القنصل الإنجليزي يطلب من زعمائهم الحضور ليلتقوا بمنقذيهم وحماتهم.

ولما بلغت القاهرة أنباء احتلال الإسكندرية أحدثت انزعاجًا كبيرًا بين الناس، وخاصة لما علموا أن محافظ الثغر قد سلَّم المدينة بدون قتال، فأخذ زعماء الشعب يجتمعون ويتشاورون، فاستقر رأيهم على أن يدعوا الشعب إلى التطوع لصد الإنجليز عن البلاد.

موقف المماليك

وكان محمد علي لم يزل بالصعيد يقاتل قوات المماليك، فلما جاءته الأنباء الأولى عن الحملة توجس خيفة منها واعتزم العودة إلى القاهرة، على أنه قابل الخبر برباطة جأش، وعمد إلى الدهاء في كسر حدة المماليك ليضمن عدم انحيازهم إلى صفوف الإنجليز، ففاوض زعماءهم في إبرام الصلح معهم، وكانت شروطهم لقبول الصلح أن يترك لهم حكم الوجه القبلي، وقد وجد محمد علي أن الضرورة السياسية تقتضي المهادنة معهم حتى يدفع خطر الحملة الإنجليزية، فقبل منهم هذا الشط على أن يؤدوا له خراج الصعيد، وعلى أن يكونوا إلى جانبه في محاربة الإنجليز؛ فرضي المماليك بهذا الشرط. ولو كان الألفي بك على قيد الحياة لما رضي به؛ ولكن خلفاءه لم يكونوا مرتبطين مع الإنجليز بمثل الروابط والعهود التي قطعها الألفي على نفسه، فضلًا عن أنهم خشوا إساءة سمعتهم واتهامهم بالخيانة إذا هم انضموا إلى الإنجليز أعداء مصر والإسلام، فقبلوا أن يحالفوا محمد علي، ولم يكونوا صادقين في التحالف؛ بل كانوا يضمرون أن يتربصوا حتى ينكشف نتائج الحملة الإنجليزية، فإن هي فازت انحازوا إليها، وإن أصابها الفشل فهم على تحالفهم مع محمد علي، وكذلك كان شأنهم في كل عهد أن يكونوا مع الغالب، على أن هذا الموقف في ذاته قد أفاد قضية مصر؛ لأنه حرم الإنجليز عضدًا قويًّا كانوا يعتمدون عليه في حملتهم.

أخلى إذن محمد علي الصعيد، وسار بجنوده إلى القاهرة، فاحتل المماليك عواصم الوجه القبلي وتقدموا إلى الجيزة.

واقعة رشيد وهزيمة الإنجليز فيها
٣١ مارس سنة ١٨٠٧م (٢١ محرم سنة ١٢٢٢هـ)

كانت خطة الإنجليز في القتال أن يزحف المماليك على القاهرة فيحتلوها، وأن يحتل الإنجليز بمعاونة أسطولهم ثغور مصر ويزحفوا إلى الداخل ويبسطوا أيديهم على حكومة البلاد، مستعينين بصنائعهم المماليك.

وقد تلقى الجنرال «فريزر» وهو بعد في الإسكندرية تقريرًا من المستر «بتروتشي» Petrucci قنصل إنجلترا في رشيد عن حالة مصر وإحصاء ما بها من القوات، فأمعن النظر في هذا التقرير، ودرس الموقف بمقدار ما بلغ إليه علمه، ثم اعتزم الزحف على رشيد لاحتلالها واتخاذها قاعدة حربية يتزود منها الجيش، ومنها يزحف إلى داخل البلاد، وعهد بهذه المهمة إلى الجنرال ويكوب وأنفذه إليها في قوة من ٢٠٠٠ من الجنود.

تحرك هذا الجيش من الإسكندرية يوم (٢٩ مارس) قاصدًا رشيد، فكان تحت أسوارها في اليوم التالي، وأخذ يتأهب لدخولها صبيحة يوم (٣١ مارس).

كان محافظ رشيد وقتئذ يدعى «علي بك السلانكلي»، وهو رجل شجاع ثاقب النظر، يختلف كثيرًا في أخلاقه عن أمين أغا حاكم الإسكندرية، وتحت أمره نحو سبعمائة جندي، فعزم على مقاومة الجيش الإنجليزي معتمدًا على قوة الحامية وعلى مشاركة الأهالي في الدفاع عن المدينة، ولأجل أن يبعث الحمية في نفوس جنوده ويحملهم على الاستبسال في القتال أمر بإبعاد مراكب التعدية إلى البر الشرقي للنيل حتى لا يجد رجال الحامية وسيلة إلى الارتداد إذا حدثتهم نفوسهم أن يسلموا كما سلمت حامية الإسكندرية. فلما تم له نقل جميع المراكب وشعر الجنود والأهلون عند اقتراب الجيش الإنجليزي أن البحر من ورائهم، والعدو من أمامهم، صحَّت

عزيمتهم على المقاومة إلى النهاية، وأمر «علي بك» أن تتراجع الحامية إلى داخل المدينة وأن يعتصموا هم والأهلون بالمنازل مستعدين للضرب، وألا يبدءوا بحركة ما إلا عندما تصدر لهم الإشارة بإطلاق النار.

فتقدم الإنجليز، ولما لم يجدوا أثرًا للمقاومة خارج البلد اعتقدوا أن حاميتها قد اعتزمت إخلاءها وتسليمها محتذية بما فعله أمين أغا محافظ الإسكندرية، فدخلوا شوارع المدينة مطمئنين، وكانوا قد أعياهم السير في الرمال من الإسكندرية إلى رشيد، فانتشروا في الطرق والأسواق يرتادون أمكنة يلجأون إليها ويستريحون فيها، ولكنهم ما كادوا يجوسون خلال الديار وتشتمل المدينة عليهم، حتى أصدر «علي بك» أمره بإطلاق النار، فاقتحمهم الرصاص من كل صوب، وأخذ الأهلون يطلقون النار من النوافذ والسطوح؛ فدبَّ الرعب في قلوبهم، وسقط الكثيرون منهم صرعى في الشوارع، فقُتل الجنرال «ويكوب» برصاصة أردته، وقتل الكثير من ضباطه، فاستولى الذعر على نفوس الإنجليز ولاذوا بالفرار، وانتهت الواقعة بهزيمة الجيش الإنجليزي وارتداد الأحياء منه عن رشيد في حالة يأس وفشل، فتقهقروا إلى الإسكندرية بطريق أبو قير وبلغ عدد القتلى منهم في هذه الواقعة نحو (١٧٠) قتيلًا و(٢٥٠) من الجرحى، وأسر المصريون منهم (١٢٠) أسيرًا.

رواية الجبرتي عن واقعة رشيد

ذكر الجبرتي عن واقعة رشيد ما يأتي:

«في يوم الجمعة رابع عشرين محرم سنة ١٢٢٢هـ وردت أخبار من ثغر رشيد يذكرون بأن طائفة من الإنكليز وصلت إلى رشيد في صبح يوم الثلاثاء حادي عشرينه (أي ٣١ مارس سنة ١٨٠٧م) ودخلوا إلى البلد، وكان أهل البلدة ومن معهم من العساكر متنبهين ومستعدين بالأزقة والعطف وطيقان البيوت، فلما حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية، فألقوا ما بأيديهم من الأسلحة وطلبوا الأمان، فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كثيرة وأسروا الباقين، وفرت طائفة

إلى ناحية دمنهور[1]، وكان كاشفها عندما بلغه ما حصل برشيد اطمأن خاطره ورجع إلى ناحية ديبه ومحلة الأمير، وطلع بمن معه إلى البر، فصادف تلك الشرذمة فقتل بعضهم وأخذ منهم أسرى، وأرسلوا السعاة إلى مصر بالبشارة، فضربوا مدافع وعملوا شنكا».

نصيب المصريين في المعركة

كان لأهالي رشيد النصيب الأوفر في هزيمة الجيش الإنجليزي؛ لأن حاميتها العسكرية كانت من القلة بحيث لا تستطيع أن تصد الجيش الزاحف، وقد سبق لنا القول أن أخبار الحملة الإنجليزية قد استفاضت في مصر قبل مجيئها، وعلم الناس بأمرها من الرسائل الواردة من الأستانة، وأخذت الثغور تستعد لمقاومتها، ولم يقبل الأهلون في رشيد أو غيرها أن يطلبوا المدد من جنود القاهرة لما اشتهروا به وقتئذ من النهب والسلب؛ إذ كان معظمهم من الأرناءود والدلاة وأخلاط السلطنة العثمانية، فآثر الأهالي أن يتولوا الدفاع عن المدينة بأنفسهم واحتملوا معظم العبء في المقاومة والقتال. **قال الجبرتي** في هذا الصدد: «وفي يوم الثلاثاء ٧ محرم سنة ١٢٢٢هـ (٧ مارس سنة ١٨٠٧م) عملوا جمعية ببيت القاضي حضرها المشايخ والأعيان، وذكروا أنه لما وردت الأوامر بتحصين الثغور أرسل الباشا (محمد علي) سليمان أغا ومعه طائفة من العسكر، وأرسل إلى أهالي الثغور والمحافظين عليها مكاتبات بأنهم إن كانوا يحتاجون إلى عساكر، فيرسل لهم الباشا عساكر زيادة على الذين أرسلهم، فأجابوا بأن فيهم الكفاية ولا يحتاجون إلى عساكر زيادة تأتيهم من مصر، فإنهم إذا كثروا في البلد يأتي منهم الفساد والإفساد، فعملوا هذه الجمعية لإثبات هذا القول».

يتبين من ذلك أن الأهالي أبوا أن يطلبوا النجدة من العسكر؛ توقيًا لما يقع منهم من الفساد، وأنهم وطنوا النفس على تحمل أعباء القتال بأنفسهم، ومما يؤيد تلك الحقيقة أن وقائع الحملة تدل على أن الحاميات العسكرية قد فر معظمها من الميدان ولم

(١) لعل الصواب: أبو قير.

تواجه الجيش الإنجليزي، فقد مر بك ما فعله أمين أغا حاكم الإسكندرية وحامية المدينة من التسليم، وكذلك فعلت حامية دمنهور فإنها لما بلغتها أخبار احتلال الإنجليز الإسكندرية أخلت دمنهور وانسحبت إلى فوه، وحاول الدمنهوريون أن يثنوهم عن عزمهم وحرضوهم على البقاء لمقاومة الإنجليز، فأبوا إلا الهرب، وأرسل الأهالي إلى السيد عمر مكرم ينبئونه بفرارهم. **قال الجبرتي** في هذا الصدد:

«وفي ١٧ محرم سنة ١٢٢٢هـ ورد مكتوب من أهالي دمنهور خطاباً إلى السيد عمر النقيب، مضمونه أنه لما دخلت المراكب الإنكليزية إلى الإسكندرية هرب من كان بها من العساكر، وحضروا إلى دمنهور، فعندما شاهدهم الكاشف (الحاكم) الكائن بدمنهور ومن معه من العسكر انزعجوا انزعاجًا شديدًا، وعزموا على الخروج من دمنهور، فخاطبهم أكابر الناحية (الأعيان) قائلين لهم: كيف تتركونا وتذهبون ولم تروا منا خلافًا؟ وقد كنا فيما تقدم من حروب الألفي من أعظم المساعدين لكم؟ فكيف لا يساعد الآن بعضنا بعضًا في حروب الإنكليز؟ فلم يستمعوا لقولهم لشدة ما داخلهم من الخوف وعبوا متاعهم، وأخرج الكاشف أثقاله وجبخانته ومدافعه وتركها وعدى وذهب إلى فوه من ليلته، ثم أرسل ثاني يوم في أخذ الأثقال، فهذا ما حصل أخبرناكم به».

ينتج مما تقدم أن النصر في معركة رشيد يرجع إلى الأهالي، وأنهم هم الذين احتملوا معظم أعباء الجهاد وأبلوا أحسن بلاء في الدفاع عن المدينة.

نتائج واقعة رشيد

كان لموقعة رشيد تأثير كبير في تطور الأحوال؛ لأن هذا النصر المبين قد ملأ قلوب المصريين حماسة وفخرًا، وضعضع الهيبة التي كانت للإنجليز في نفوس الناس، تلك الهيبة التي جاءت من انتصاراتهم السابقة على الجيش الفرنسي في مصر وعلى الأساطيل الفرنسية فوق ظهر البحار، فلا غرو أن يبعث هذا النصر إلى نفوس الشعب روح الثقة، ويحفزه إلى الاستمرار في المقاومة. ولقد كان لهذه الواقعة في نفوس المماليك

تأثير بالغ؛ فإنها كانت لهم صدمة شديدة أضعفت أملهم في نجاح الحملة الإنجليزية، وجعلتهم ينكمشون في معاقلهم بالوجه القبلي؛ وبالتالي جعلت الجيش الإنجليزي لا يتوقع المعاونة التي كان ينتظرها منهم. فكل هذه الاعتبارات جعلت لواقعة رشيد من الأهمية شأنًا بالغًا في قيمته وخطره.

وقد بادر «علي بك» حاكم رشيد بعد الموقعة إلى إنفاذ الأسرى الإنجليز إلى القاهرة، ومعهم رءوس قتلاهم؛ ليكون ذلك إعلانًا للنصر الذي نالته رشيد، ثم ليبعث هذا المنظر في نفوس الجنود والشعب روح الأمل والثقة، وكان يوم حضورهم يومًا مشهودًا.

قال الجبرتي في وصفه ما خلاصته:

«فلما كان يوم الأحد ٢٦ محرم سنة ١٢٢٢هـ (إبريل سنة ١٨٠٧م) أشيع وصول رءوس القتلى ومن معهم من الأسرى إلى بولاق، فهرع الناس إلى الذهاب للفرجة، ووصل الكثير منهم إلى ساحل بولاق، وركب أيضًا كبار العسكر ومعهم طوائفهم لملاقاتهم، فطلعوا بهم إلى البر وصحبتهم جماعة العسكر المتسفرين معهم، فأتوا بهم من خارج مصر ودخلوا من باب النصر، وشقوا بهم من وسط المدينة وفيهم فسيال (ضابط) كبير، وآخر كبير في السن، وهما راكبان على حمارين، والبقية مشاة في وسط العسكر، ورءوس القتلى معهم على نبابيت، وعدتها أربعة عشر رأسًا، والأحياء خمسة وعشرون، ولم يزالوا سائرين بهم إلى بركة الأزبكية وضربوا عند وصولهم شنكا ومدافع، وطلعوا بالأحياء مع فسيالهم إلى القلعة. وفي يوم الإثنين وصل أيضًا جملة من الرءوس والأسرى إلى بولاق فطلعوا بهم على الرسم المذكور وعدتهم مائة وواحد وعشرون رأسًا، وثلاثة عشر أسيرًا وفيهم جرحى».

حالة الشعب النفسية وتطوعه للقتال

تكلمنا عن نصيب أهل رشيد في المعركة التي دارت رحاها في شوارعها، وفيما حاق بالجيش الإنجليزي من الهزيمة، ولقد بدت على سكان القاهرة تلك الروح التي

تجلت في أهل رشيد، فمنذ أن وردت أنباء المعركة الأولى استنفر الشيوخ وفي مقدمتهم السيد عمر مكرم أهل القاهرة إلى التطوع للقتال، وخطب خطباء المساجد في حث الناس على الجهاد، فاستجابوا للدعوة راضين، وأقبلوا على التطوع مختارين.

فضل السيد عمر مكرم

أخذ المتطوعون يذهبون في صبيحة كل يوم إلى أطراف المدينة يعملون في حفر الخناق، وإقامة الاستحكامات شمالي القاهرة؛ لصد الإنجليز إذا جاءوا بطريق شبرا، وبادروا إلى العمل في ذلك وسارعوا إلى الاستعداد للقتال، وعلى رأسهم السيد عمر مكرم. وكان الفقراء يعملون متطوعين نصف النهار، ثم يعودون إلى أعمال معاشهم عند الظهر.

وظهرت العاصمة بتلك الروح التي تجلت فيها قبيل معركة الأهرام سنة (١٧٩٨). وفي خلال ثورة الشعب على خورشد باشا سنة (١٨٠٥م)، قال المسيو «مانجان» في هذا الصدد يصف ما شاهده:

«كان السيد عمر مكرم يذهب في صبيحة كل يوم تتبعة الجماهير إلى حيث يشتغل العمال في إقامة الاستحكامات، وكثيرًا ما يبقى هناك النهار كله في خيمة أعدت له، وكان حضوره يثير الحماسة والشجاعة في نفوس الناس جميعًا، وقد بذل كل إنسان ما في وسعه لإقامة الاستحكامات»(١).

وقال الجبرتي يصف عمل السيد عمر مكرم:

«وفيه -يوم ٢٦ محرم- نبَّه السيد عمر النقيب على الناس، وأمرهم بحمل السلاح والتأهب للجهاد في الإنكليز حتى مجاوري الأزهر، وأمرهم بترك حضور الدروس، وكذلك أمر المشايخ المدرسين بترك إلقاء الدروس».

---

(١) «تاريخ مصر في حكم محمد علي» جزء٢، ص٢٧٩.

فتأمل دعوة الجهاد التي بثها السيد عمر مكرم والروح التي نفخها في طبقات الشعب، فإنك لترى هذا الموقف مماثلًا لموقفه عندما دعا الشعب إلى التطوع لقتال الفرنسيين قبل معركة الأهرام، ثم تأمل في دعوته الأزهريين إلى المشاركة في القتال؛ تجد أنه لا ينظر إليهم كرجال علم ودين فحسب؛ بل رجال جهاد وقتال ودفاع عن الذمار أيضًا، فعملهم في ذلك العصر كان أعم وأعظم من عملهم اليوم.

وقال الجبرتي في موضع آخر يصف اجتماع زعماء الشعب ورجال الحكومة للتشاور فيما يجب عمله:

«وفي يوم الثلاثاء حصلت جمعية ببيت القاضي، وحضر حسن باشا وعمر بك والدفتر دار وكتخدا بك والسيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوي والشيخ الأمير وباقي المشايخ، فتكلموا في شأن حادثة الإنكليز والاستعداد لحربهم وقتلهم وطردهم؛ فإنهم أعداء الدين والملة، ويجب أن يكون الناس والعسكر على حال الألفة والشفقة والاتحاد، وأن تمتنع العساكر عن التعرض للناس بالإيذاء -كما هو شأنهم- وأن يساعد بعضهم بعضًا على دفع العدو، ثم تشاوروا في تحصين المدينة وحفر خنادق، فقال بعضهم: إن الإنكليز لا يأتون إلا من البر الغربي والنيل حاجز بين الفريقين، وإن الفرنساوية كانوا أعلم بأمر الحروب، وأنهم لم يحفروا إلا الخندق المتصل من باب الحديد إلى البحر (النيل)، فينبغي الاعتناء بإصلاحه ولو لم يكن كوضعهم وإتقانهم، واتفقوا على ذلك».

وقال في موضع آخر: «وفي يوم الأربعاء ٢٩ محرم ركب السيد عمر النقيب والقاضي والأعيان المتقدم ذكرهم، ونزلوا إلى ناحية بولاق لترتيب أمر الخندق المذكور، وصحبتهم قنصل الفرنساوية -وهو الذي أشار عليهم بذلك- وصحبتهم الجمع الكثير من الناس والأتباع، والكل بالأسلحة».

وقال عن اشتراك طبقات الشعب في حفر الخندق المذكور وإقامة الاستحكامات بما بلغ إليه جهد كل مطيق: «وشرعوا في حفر الخندق المذكور، ووزعوا حفره على

مياسير الناس وأهل الوكائل والخانات والتجار وأرباب الحرف والروزنامجي، وجعلوا على البعض أجرة مائة رجل من الفعلة، وعلى البعض أجرة خمسين وعشرين، وكذلك أهل بولاق ونصارى ديوان المكس (الجمرك) والنصارى والأروام والشوام والأقباط، واشتروا الماقطف والغلقان والفوس والقزم وآلات الحفر، وشرعوا في بناء حائط مستدير بأسفل تل قلعة السبتية».

وقد حدثت كل هذه الاستعدادات ومحمد علي باشا لم يزل غائبًا بالصعيد. وهذا يدلك على أن الشعب كان متطوعًا من تلقاء نفسه للقتال، عازمًا على الحرب والمقاومة، كما كان شأنه عند مجيء الحملة الفرنسية. أما قنصل فرنسا الذي أشار إليه الجبرتي فهو المسيو «دورفتي» وكان في الإسكندرية عندما جاءت العمارة الإنجليزية، فغادر مخافة أن يقع أسيرًا في يد الإنجليز؛ لما كان بين إنجلترا وفرنسا من العداء المستحكم في ذلك الحين، فرحل من الإسكندرية إلى رشيد، ومنها انحدر إلى القاهرة، فاشترك في تنظيم وسائل الدفاع عنها.

ولم يقتصر تطوع سكان القاهرة على الدفاع عن العاصمة؛ بل هبوا لنجدة إخوانهم أهل رشيد؛ وذلك أنه على الرغم من ردهم الجيش الإنجليزي الأول، فإنهم استهدفوا لزحف الجيش الإنجليزي الثاني الذي جاء ليمحو أثر الواقعة الأولى، فضرب الحصار على رشيد، وركب المدافع على آكام أبي مندور التي تتسلط عليها، وأخذ يضربها بالمدافع تمهيدًا للهجوم عليها وفتحها عنوة، وقد تهدم كثير من بيوتها ومات كثير من أهلها من ضرب المدافع وتساقط القنابل، فأرسل السيد حسن كريت نقيب أشراف رشيد الرسائل إلى السيد عمر مكرم يستنجده ويطلب إليه إمداد المدينة بالرجال والعتاد. فقرأ السيد عمر الرسالة الأولى على الناس وحصنهم على التطوع لنجدة رشيد، فاستجابوا وتطوعوا وحملوا السلاح، وأزمعوا السفر لنجدة إخوانهم، وبالرغم من أن (كتخذا بك) لم يأذن لهم بالسفر حتى يحضر محمد علي باشا من الصعيد، فإن كثيرين منهم لم يعبأوا بهذا المتع وارتحلوا لنجدة أهل رشيد في صد الجيش الإنجليزي.

وتطوع كذلك أهالي البحيرة والبلاد المجاورة لرشيد، وأقبلوا عليها يدافعون عنها، فكان ذلك مظهرًا جليلًا من مظاهر التضامن القومي والاشتراك في حمل أعباء الجهاد، واتحاد الكلمة في ساعة الخطر، وفداء كل موضع في البلاد بكل فرد من أهل البلاد.

قال الجبرتي: «وفي يوم الخميس غاية محرم ورد مكتوب من السيد حسن كريت نقيب أشراف رشيد والمشار إليه بها (أي كبير أعيانها) يذكر فيه أن الإنكليز لما أوقع بهم رشيد، ورجعوا في هزيمتهم إلى الإسكندرية استعدوا وحضروا إلى ناحية الحماد قبلي رشيد، ومعهم المدافع الهائلة والعدد، ونصبوا متاريسهم من ساحل البحر (النيل) إلى الجبل عرضًا، وذلك ليلة الثلاثاء ثامن عشرينه، فهذا ما حصل أخبرناكم ونرجو الإسعاف والإمداد بالرجال والجبجانة والعدة والعدد وعدم التأني والإهمال. فلما وصل هذا الجواب قرأه السيد عمر النقيب على الناس وحثهم على التأهب والخروج للجهاد؛ فامتثلوا ولبسوا الأسلحة، وجمع إليه طائفة المغاربة وأتراك خان الخليلي وكثيرًا من العدوية والأسيوطية وأولاد البلد، وركب في صبحها إلى كتخدا بك، واستأذنه في الذهاب فلم يرض، وقال حتى يأتي أفندينا الباشا (محمد علي) ويرى رأيه في ذلك، فسافر من سافر، وبقي من بقي».

وقال في موضع آخر: «وفي يوم السبت ثاني صفر (١١ إبريل سنة ١٨٠٧م) وردت مكاتبة أيضًا من ثغر رشيد، وعليها إمضاء علي بك السلانكلي حاكم الثغر، وطاهر باشا، وأحمد أغا المعروف ببونابرت بمعنى مكتوب السيد حسن السابق، ويذكرون فيه أن الإنكليز ملكوا أيضًا كوم الأفراح وأبو منضور ويستعجلون النجدة، وفي خامس صفر وردت مكاتبة من رشيد عليها إمضاء السيد حسن كريت يخبر فيها بأن الإنكليز محتاطون بالثغر ومتحلقون حوله ويضربون البلد بالمدافع والقنابل، وقد تهدم الكثير من الدور والأبنية ومات كثير من الناس، وقد أرسلنا لكم قبل تاريخه نطلب الإعانة والنجدة فلم تسعفونا بإرسال شيءٍ، وما عرفنا لأي شيء هذا الحال،

وما هذا الإهمال، فالله الله في الإسعاف، فقد ضاق الخناق وبلغت القلوب الحناجر من توقع المكروه وملازمة المرابطة والسهر على المتاريس، ونحو ذلك من الكلام، وهي خطاب للسيد عمر النقيب والمشايخ، ومؤرخة في ثاني صفر ٢٢».

معركة الحَماد (٢١ إبريل سنة ١٨٠٧م)

كانت واقعة رشيد ضربة شديدة أصابت الجيش الإنجليزي، فأراد الجنرال «فريزر» أن يمحو أثر الهزيمة التي حاقت به في تلك الواقعة، واعتزم تجريد جيش آخر يستأنف الزحف على رشيد، وعهد بقيادته إلى الجنرال ستوارت.

وفي غضون ذلك وصل محمد علي باشا إلى القاهرة عائدًا من الصعيد، فبلغها ليلة (١٢ إبريل سنة ١٨٠٧م، ٣ صفر سنة ١٢٢٢هـ)[١]، فأطلع على الأنباء الواردة عن هزيمة الإنجليز في رشيد، فاطمأن نفسًا وألفى الحالة أقل خطورة مما كان يتوقع. على أنه لم يركن إلى ما حدث في تلك الموقعة، ورأى بثاقب نظره أن الإنجليز قد يستأنفون القتال والزحف ليستردوا هيبتهم الضائعة، فبادر إلى تجريد جيش أنفذه لمحاربتهم وصدهم عن التقدم، وأتم عمل الاستحكامات التي بدئ بها قبل حضوره، وواصل العمل في حفر الخنادق بين باب الحديد وبولاق؛ لإقامة خط الدفاع عن القاهرة من الشمال، وشق أخاديد أمام الخنادق تتصل بالنيل لتمتلئ بالمياه وتعرقل تقدم الجيش الإنجليزي، وأغرق عدة من المراكب بين جزيرة بولاق والشاطئ لمنع مرور السفن الإنجليزية في النيل إذا جاءت من رشيد، ونصب بطاريات من المدافع في شبرا وإمبابة وجزيرة بولاق، واشترك العلماء والشعب في العمل بحماسة وغيرة وحمية.

وأخذ يدبر المال اللازم لنفقات الجيش، وعاونه السيد عمر مكرم والعلماء في جمع ما يستطاع تدبيره من المال، فجمعوا تسعمائة كيس من سكان العاصمة خصصوها لنفقات الزحف.

---

(١) رواية الجبرتي.

obeikan.com

وتم تجهيز الحملة، فكانت مؤلفة من أربعة آلاف مقاتل من المشاة، وخمسمائة وألف من الفرسان، وسارت قاصدة إلى رشيد بقيادة طبوز أوغلى[١].

أمَّا جيش الجنرال «ستوارت» فكان عدده نحو أربعة آلاف مقاتل مجهزين بالمدافع والأسلحة والذخائر.

تحرك هذا الجيش من الإسكندرية يوم (٣ إبريل) زاحفًا على رشيد، ولما صار على مقربة منها أنفد الجنرال «ستوارت» كتيبة منه احتلت (الحماد) التي تقع جنوبي رشيد بين النيل وبحيرة إدكو[٢]، وكان الغرض من احتلالها تطويق رشيد، ومنع وصول المدد إليها من الجنود، وحماية ساقة الجيش الإنجليزي.

واحتل الإنجليز أيضًا آكام أبي مندور، وركبوا عليها المدافع ليضربوا رشيد بالقنابل، وعسكر معظم الجيش غربي رشيد وجنوبيها، وأخذ يحاصرها (٧ إبريل) ويضربها بالمدافع.

كان الإنجليز يظنون أن ضرب المدينة بالمدافع يلقي الرعب في نفوس الحامية والأهالي، ويضطرهم إلى التسليم، وقد أنذروهم غير مرة بأن يسلموا المدينة، ولكنهم رفضوا، وكان انتصارهم السابق في واقعة رشيد قد بعث في نفوسهم الحمية والحماسة، فصمموا على الاستبسال في الدفاع عن مدينتهم، وبالرغم مما أحدثته القنابل من تخريب البيوت وقتل العدد الكثير من السكان، فإنهم صابروا وصبروا واحتملوا هذه الشدائد بشجاعة ورباطة جأش، وكانوا يخرجون من المدينة من آن لآخر لمناوشة القوات الإنجليزية، واستمر الضرب والحصار نحو اثني عشر يومًا دون أن يفوز الإنجليز بطائل.

---

(١) هو كتخدا بك –أي نائب محمد علي– ويسميه الجبرتي (دبوس أوغلي)، وهو جد حسين رشدي باشا أحد رؤساء الوزارة السابقين.

(٢) انظر موقعها بالخريطة ص٥٥.

كتب الجنرال «ستوارت» في رسالة له إلى الجنرال «فريزر» يقول[١]:

«إن ما أنبأتموني به من قرب حضور المماليك جعلني أتريث في الهجوم على رشيد، لقد ألحقنا بالمدينة أضرارًا كبيرة، وقد بلغ ما أطلقناه عليها من المدافع البعيدة المرمى ٣٠٠ قنبلة. على أنه قد تبين لنا أن الأعداء لا يكترثون بالمصائب التي تنزل بهم؛ إن قواتهم لا تزيد على ما بلغنا على ٣٠٠ من الفرسان، و٨٠٠ من الأرناءوط وألف من الأهالي المسلحين، ولكن نظرًا لسعة خطوط دفاعهم وطبيعة مواقعهم لم أر من الحكمة أن أتعجل اقتحام المدينة، وأن نجاحنا معلق على نجدة المماليك، فإذا جاءوا إلينا أمكننا أن نرسل إلى البر الشرقي من النيل قوة تشترك في القتال، أمَّا الآن فيستحيل علينا ذلك؛ لأن العدو متفوق علينا في قوة الفرسان، وليس لدينا مثل هذه القوة التي لها عمل كبير في الجهات المنبسطة كجهات الدلتا، وفي انتظار تلك النجدة يتبين لنا مبلغ أهمية موقعنا في (الحماد) فإننا نتوقع أن يهاجمنا الأعداء فيها، وسنبذل كل جهودنا لاستبقائها في يدنا».

كان الإنجليز ينتظرون إذن أن ينجدهم المماليك، ولكن هؤلاء أخذوا يسوفون ويماطلون في الوفاء بعهدهم، ويرقبون تطور الحوادث، ثم تخلوا عن حلفائهم لما رأوا من حرج مركزهم. وفي غضون ذلك أخذ الأهالي يناوشون مواقع الإنجليز في الحماد، فأنفذ إليها الجنرال «ستوارت» مددًا من الجنود، وركب المصريون أيضًا مدفعين على الشاطئ الشرقي، وأخذوا يلقون القنابل على ميمنة الجيش الإنجليزي بالبر الغربي، فاجتاز الماجور «ماكدونالد» Macdonald النهر عند مسجد أبي مندور (١٦ إبريل) ومعه قوة من ٢٥٠ جنديًّا، واستولى على موقع المصريين وعلى المدفعين، ثم تلقى المصريون مددًا، فعاد «ماكدونالد» أدراجه إلى البر الغربي.

واستمر الضرب والحصار إلى أن جاء المدد الذي أرسله محمد علي باشا بقيادة «طبوز أوغلى»، فتغير الموقف الحربي تغيرًا جوهريًّا.

---

(١) «وثائق الحملة الإنجليزية سنة ١٨٠٧م» للمسيو دوان. وثيقة رقم ٤٦.

كان هذا المدد مؤلفًا من فرقتين؛ الأولى يقودها طبوز أوغلى نفسه بالبر الشرقي للنيل، والأخرى بقيادة حسن باشا بالبر الغربي، وكانت الفرقتان تسير كلتاهما حذاء الأخرى على الشاطئين، فلما جاءتا على مقربة من رشيد عسكرت فرقة حسن باشا بالبر الغربي تجاه (الحماد)، وعسكرت الأخرى في (برنبال) بالشاطئ الشرقي، وكان جنود الفرقتين يشاهد بعضهم بعضًا.

ففي صبيحة (٢٠ إبريل) تقدمت طلائع الجيش المصري من الفرسان (من فرقة حسن باشا) نحو مواقع الإنجليز في الحماد، والتقت بكتيبة منهم وسط المزارع، فأراد هؤلاء الارتداد إلى القرية؛ ولكنهم لم يحكموا انسحابهم وأحاط بهم فرسان الجيش المصري فقتلوا بعضهم وأسروا آخرين.

فلما علم الجنرال ستوارت بهذا الاصطدام الأول أنفذ الكولونيل «ماكلود» Mac Leod ومعه مدد من الجنود والمدافع إلى (الحماد) لتثبيت مركز الإنجليز فيها، وعهد إليه بقيادة القوة المرابطة بها.

كان موقع هذه القرية على جانب كبير من الأهمية، وعليها يدور محور القتال؛ لأنها واقعة في برزخ بين النيل وبحيرة إدكو، وفي شماليها ترعة كانت في ذلك الحين جافة تصل من النيل إلى قرب البحيرة، فلو أن الإنجليز أحكموا الدفاع عن موقعهم بها لأمكنهم أن يسدوا الطريق أمام الجيش المصري؛ فلا يستطيع اجتياز ذلك البرزخ ولا الوصول إلى رشيد ليمدها بالنجدة.

رتب الكولونيل مواقع جنوده ليدافع بهم عن هذا البرزخ، وكان عددهم ثمانمائة مقاتل ترتكز ميسرتهم إلى النيل بقيادة الماجور «وجلسند» Wogelsand، وميمنتهم قرب بحيرة (إدكو) بقيادة الكابتن «تارلتون» Tarleton، والقلب في قرية الحماد بقيادة الماجور «مور» Moor. أمّا جمهرة الجيش الإنجليزي فرابطت حول رشيد لحصارها.

وانقضى يوم (٢٠ إبريل) وموقع الإنجليز في الحماد لم يستهدف في الظاهر للخطر، وكان الكولونيل «ماكلود» مطمئنًا إلى مركزه؛ لكن الجنرال «ستوارت» لاحظ حينما

obeikan.com

قتش خط الدفاع في الحماد (ليلة ٢١ إبريل) أنه لا يحتمل في بعض جهاته ضغط قوات الجيش المصري إذا تكاثر عددها، فعهد إلى الكولونيل «ماكلود» أن يستبسل في الدفاع عن مواقعه قدر ما يستطيع، وفي حالة تكاثر قوات الفرسان المصريين فعليه أن يرتد إلى شاطئ البحيرة، فإذا لم يستطيع ذلك فليتراجع إلى مواقع الجيش الإنجليزي الذي كان يحاصر رشيد.

وأدرك الجنرال «ستوارت» أن القوات المصرية بعد أن جاءها المدد صارت أكثر عددًا من الجيش الإنجليزي، فارتأى أن ينتظر إلى اليوم التالي (٢١ إبريل) واعتزم إذا لم تصله النجدة من المماليك أن ينسحب من الحماد ويرفع الحصار عن رشيد ويتراجع إلى الإسكندرية.

أمَّا طبوز أوغلي –قائد الجيش المصري– فإنه كان إلى ذلك الوقت مرابطًا في برنبال بالبر الشرقي، مترددًا في أي طريق يسلكه، هل يذهب رأسًا لنجدة رشيد ليرفع الحصار عنها، أم يهاجم أولًا موقع الإنجليز في الحماد؟ إلى أن تشجع بالنصر الذي ناله فرسان حسن باشا بالبر الغربي في الاصطدام الأول، فاعتزم اتباع الخطة الأخيرة، فعبر النيل ليلًا بجنوده، وأقلتهم المراكب إلى العدوة اليسرى، وانضموا إلى فرقة حسن باشا تأهبًا لمهاجمة الحماد في صبيحة الغد (٢١ إبريل).

وفي الصباح شاهد الكولونيل «ماكلود» قوات الجيش المصري قد تكاثر عددها، وامتلأ السهل برجالها، فأرسل من فوره إلى الجنرال «ستوارت» ينبئه الخبر ويطلب إليه أن يقره على الانسحاب إلى مواقع الجيش الإنجليزي حول رشيد، فبعث إليه ستوارت يقره على خطته، ويمدع بفصيلة من الجند، ولكن الرسول لم يصل إلى الحماد، وكذلك لم يجئ المدد؛ لأن فرسان الجيش المصري قد انسابوا في السهل وقطعوا المواصلات بين الحماد ورشيد، فاعتزم «ماكلود» الانسحاب من خط دفاعه؛ ولكنه لم يحكم خطته، وتفرقت قواته، فتمكن فرسان الجيش المصري من الانقضاض عليها واحدة إثر أخرى، في الوقت الذي احتل فيه المشاة المصريون قرية الحماد.

تعقب الفرسان القوات الثلاث، فأحاطوا بقوة القلب، وكان معها الكولونيل «ماكلود»، وانهال عليها الرصاص من كل صوب؛ فقُتل معظم رجالها، وقُتل من بينهم الكولونيل «ماكلود» نفسه.

وأحاطوا كذلك بالميمنة فقتل قائدها الكابتن ترلتون ومعظم جنودها، ولم ينج من القتل سوى خمسين وقعوا في الأسر.

أمَّا الميسرة فقد قاومت قليلًا وأحاط بها الفرسان من كل جانب، فلم ير قائدها الماجور «وجلسند» بدًّا من التسليم، فسلم هو والبقية الباقية من الإنجليز، وكان ذلك ختام المعركة.

بدأت الواقعة الساعة السابعة صباحًا. واستمرت ثلاث ساعات حمي فيها وطيس القتال، وانتهت بهزيمة الجيش الإنجليزي المرابط في الحماد، ولم ينج منه أحد، فمن لم يدركه القتل لم يسلم من الأسر، وبلغت خسارته نحو (٤١٦) من القتلى و(٤٠٠) أسير.

كان الجنرال «ستوارت» مرابطًا أثناء الواقعة جنوبي رشيد ومعه بقية الجيش الإنجليزي، فلما أدرك عظم النكبة التي حلت بقواته في الحماد سارع إلى رفع الحصار عن رشيد وبادر إلى الانسحاب قبل أن ينقض عليه الجيش المصري، فأتلف مدافعه التي لم يستطع حملها وتراجع إلى طريق أبو قير يجر أذيال الخيبة والهزيمة.

وبالرغم من كتمانه تدابير الانسحاب، فإن أهالي رشيد والبلاد المجاورة تعقبوه في انسحابه إلى أن وصل إلى بحيرة إدكو وجرت مناوشات على شاطئ البحيرة بينه وبين المصريين انتهت بارتداد هؤلاء ومواصلة الإنجليز الانسحاب حتى بلغوا أبو قير ومن هناك استقلوا السفن إلى الإسكندرية.

openkan.com

رواية الجبرتي عن معركة (الحماد)

قال الجبرتي عن معركة الحماد ما يلي:

«في يوم الخميس ١٤ صفر حضر شخصان من السعاة وأخبرا بالنصر على الإنجليز وهزيمتهم؛ وذلك أنه اجتمع الجم الكبير من أهالي البحيرة وغيرها وأهالي رشيد ومن معهم من المتطوعة والعساكر، وأهل دمنهور، وصادف وصول كتخدا بك وإسماعيل كاشف الطوبجي إلى تلك الناحية، فكان بين الفريقين مقتلة كبيرة وأسروا من الإنكليز طائفة، وقطعوا منهم عدة رءوس، فخلع الباشا (محمد علي) على الساعيين جوختين، وفي أثر ذلك وصل أيضًا شخصان من الأتراك بمكاتبات بتحقيق ذلك الخبر، وبالغا في الأخبار وأن الإنكليز انجلوا عن متاريس رشيد وأبي مندور والحماد، ولم يزل المقاتلون من أهل القرى خلفهم إلى أن توسطوا البرية وغنموا جبخانتهم وأسلحتهم ومدافعهم ومهراسين عظيمين».

وقال في موضع آخر يصف تطوع المصريين في القتال بعد معركة رشيد الأولى ونصيبهم في معركة الحماد وما أبلوا فيها من البلاء الحسن، وكيف غمط حقهم بعد ذلك ولم يعرف فضلهم في الجهاد والفوز:

«وكذلك أهل البلاد قويت همتهم وتأهبوا للبروز والمحاربة، واشتروا الأسلحة ونادوا على بعضهم بالجهاد، وكثر المتطوعون ونصبوا لهم بيارق وأعلامًا، وجمعوا من بعضهم دراهم، وصرفوا على من انضم إليهم من الفقراء، وخرجوا في مواكب وطبول وزمور، فلما وصلوا إلى متاريس الإنكليز دهموهم من كل ناحية على غير قوانين حروبهم وترتيبهم، وصدقوا في الحملة عليهم، وألقوا أنفسهم في النيران ولم يبالوا برميهم، وهجموا عليهم واختلطوا بهم، وأدهشوهم بالتكبير والصياح حتى أبطلوا رميهم ونيرانهم، فألقوا سلاحهم، وطلبوا الأمان فلم يلتفتوا لذلك، وقبضوا عليهم وذبحوا الكثير منهم، وحضروا بالأسرى والرءوس على الصورة المذكورة، وفر

الباقون إلى من بقي بالإسكندرية. وليت العامة شكروا على ذلك أو نسب إليهم فضل؛ بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره، وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد ذلك».

تأثير معركة الحماد في الموقف الحربي

كانت معركة (الحماد) هزيمة ساحقة للإنجليز؛ فملأت نفوس المصريين عزمًا وفخرًا وثقة، وأسقطت هيبة الجيش الإنجليزي، وخاصة لما جمع كتخدا بك أسراهم وشحنهم في المراكب إلى القاهرة ليتحقق الناس عظم النصر الذي أدركه الجيش المصري.

وصل أولئك الأسرى إلى بولاق يوم (٢ صفر سنة ١٢٢٢هـ، ٢٩ إبريل سنة ١٨٠٧م) فسيقوا من بولاق إلى الأزبكية ومنها إلى القلعة، وعددهم (٤٨٠) أسيرًا، وفي مقدمتهم من قواد الجيش الإنجليزي الماجور «مور»، والماجور «وجلسند». وكان يوم حضورهم يومًا مشهودًا احتشدت فيه الجماهير من سكان العاصمة على جوانب الشوارع والطرقات لرؤية منظر الأسرى، وطيف برءوس القتلى الإنجليز ليراها الناس على الطريقة التي كانت مألوفة في ذلك العصر، فبلغ عددها (٤٥٠) رأسًا.

أمَّا الجنرال «فريزر» فقد أسقط في يده بعد هزيمتي رشيد والحماد، ورأى من العبث أن يعاود القتال، فامتنع بالإسكندرية وأخذ في تحصينها، وبعث بالرسل إلى زعماء المماليك يذكرهم بوعود الألفي ويناشدهم العهود ويحرضهم على إمداده ومعاضدته ليواصل القتال ويعيدهم إلى دست الأحكام، ولكن المماليك لما علموا بما حلَّ بالإنجليز من الهزيمة صموا آذانهم عن الاستجابة لطلب الجنرال «فريزر» وظلوا بعيدين عن غمرات القتال.

ولكي يأمن الجنرال «فريزر» على نفسه قطع سد أبو قير لتطغى مياه بحيرة أبو قير على مريوط وتحيط المياه بالإسكندرية من جميع الجهات، وهذه هي المرة الثانية التي

قطع فيها الإنجليز هذا السد، وكانت المرة الأولى سنة (١٨٠١م) حينما حاربوا الجنرال «منو» فأرادوا أن يحصروه في الإسكندرية فقطعوا السد[١].

ولا يخفى أن قطع السد يتلف ترعة الإسكندرية فيمنع وصول مياهها إلى الثغر ويخرب بلادًا كثيرة في جهات مريوط، فالإنجليز قد تسببوا في هذا الخراب مرتين.

وأخذ محمد علي يعد العدة للزحف على الإسكندرية وإجلاء الإنجليز عنه، ولم يكد يبدأ في إنفاذ عزمه حتى جاءه بالقاهرة رسول من قبل الجنرال «فريزر» يحمل رسالة منه، فظنَّ أن هذه الرسالة خاصة بالأسرى الإنجليز الذين في القلعة، ففضها فإذا فيها طلب الجنرال «فريزر» المفاوضة في الصلح على أن يجلو الجيش عن الإسكندرية، ولم يكن محمد علي يتوقع جلاء الإنجليز عن البلاد بهذه السهولة؛ وهم الذين يتطلعون منذ سنوات عدة إلى احتلالها وبسط نفوذهم عليها، ويبذلون الجهود والوسائل لتحقيق أطماعهم فيها، فلم يغب عن محمد علي ما بذله الإنجليز من عهد الحملة الفرنسية لإحتلال مصر ولا مساعيهم لدى الباب العالي ودسائسهم المستمرة لتولية صنائعهم المماليك حكم البلاد، وخاصة محمد بك الألفي، ولا تجريدهم تلك الحملة في هذا الغرض. كل هذا لم يفت نظر محمد علي الثاقب، ولذلك لم يكد يصدق هذه الرسالة، وحاول كتمان دهشته منها وابتهاجه لها، وأجاب الرسول بأنه ذاهب بجيشه إلى دمنهور، وهناك سيبعث بجوابه إلى الجنرال «فريزر».

والواقع أن إنجلترا عزمت وقتئذ على العدول عن غزو مصر، ولم يكن ذلك منها تورعًا ولا عدولًا عن تحقيق أطماعها الاستعمارية في وادي النيل؛ بل لأن الحالة السياسية في أوربا كانت لا تمكنها من متابعة حملتها على مصر؛ وذلك أن الصراع بينها وبين نابليون استحر وبلغ مبلغه في ذلك العهد، وكان نابليون إذ ذاك في أوج قوته ومجده، وقد دان له معظم القارة الأوربية، وعقد مع قيصر الروسيا صلح (تلسيت) الشهير، ذلك الصلح الذي وطد مركزه في أوربا وضمن له صداقة القيصر، فاستطاع

(١) انظر: الجزء الثاني من «تاريخ الحركة القومية» ص٢٥٢، الطبعة الأولى.

أن يتفرغ لتوجيه قواته الهائلة لسحق إنجلترا، فرأت هذه أن تجمع قواها لتدافع عن جزيرتها، وآثرت ألا تغامر بجيوشها في حملات بعيدة وهي في حاجة إليها، ورأت من جهة أخرى بعد ما أصاب جنودها من الهزيمة والخذلان في رشيد والحماد أن الحملة على مصر ليست مرجوة العواقب؛ من أجل ذلك عدلت عن متابعة حملتها وأرسلت تستدعي جيشها من الإسكندرية، وأمرت الجنرال «فريزر» بالإقلاع بجنوده إلى صقلية. ولا يعني هذا أنها تخلت عن مطامعها في مصر؛ بل رأت أن ترجئ تحقيقها إلى أن تسنح فرصة أخرى، وكذلك ظلت تضمر الشر لمصر وترقب الفرص إلى أن كشرت عن نابها أثناء اشتداد الصراع بين مصر وتركيا سنة (١٨٣٩م) فتدخلت في المسألة المصرية، وألبت الدول الأوربية على مصر وحرمتها ثمرة انتصاراتها على الأتراك، كما سيجيء بيانه، وظلت بعد ذلك تتحين الفرص لاحتلال البلاد حتى سنحت لها الفرصة سنة (١٨٨٢م) أثناء الثورة العرابية.

إبرام الصلح وجلاء الإنجليز عن البلاد

اعتزم محمد علي إذن السفر إلى دمنهور وسار بجيشه من معسكره في إمبابة إلى الرحمانية، ومنها إلى دمنهور يوم (١٢ أغسطس سنة ١٨٠٧م، ٧ جمادى الثانية)، وكان جيشه مؤلفًا من ثلاثة آلاف من المشاة وألف من الفرسان مجهزين بمدفعية قوية.

ولما بلغ دمنهور التقى بالجنرال «شربروك» Scher brook الإنجليزي الذي فوضه الجنرال «فريزر» في الاتفاق على الصلح، وهناك أبرم الطرفان المعاهدة[1]، وهي تقضي بجلاء الجنود الإنجليزية عن الإسكندرية في مقابل استرجاعهم أسراهم وجرحاهم، فبادر محمد علي بإنفاذ أمره إلى القاهرة ليحمل الأسرى الإنجليز على الفور، وأخذ الجنرال «فريزر» يعد معدات الجلاء ويتسلم الأسرى. وفي اليوم التاسع من سبتمبر[2]

(١) بتاريخ (١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧م)، وقد نشرنا نصها في قسم الوثائق، وثيقة رقم١.

(٢) اعتمدنا في تاريخ هذا اليوم على الوثيقة رقم (١٢٩) من وثائق الحملة الإنجليزية المتقدم ذكرها.

تم جلاء الإنجليز عن المدينة، وتسلم الإسكندرية طبوز أوغلى نيابة عن محمد علي، ثم أقلعت السفن البريطانية ذاهبة بجنود الحملة إلى صقلية.

قال الجبرتي: «وفي يوم الأربعاء ١٣ رجب سنة ١٢٢٢هـ وصل المبشرون بنزول الإنكليز من ثغر الإسكندرية إلى المراكب، ودخل إليها كتخدا بك (طبوز أوغلى) ونزل بدار الشيخ المسيري».

وبذلك طويت صحيفة الاحتلال البريطاني الثاني(١)، فكانت مدته ستة أشهر. فتأملْ في هذا التاريخ، سبتمبر سنة (١٨٠٧م)، وارجع معي بفكرك إلى أكثر من مائة سنة خلت، واعلمْ بأن إنجلترا ما فتئت خلال هذه الأعوام ترقب فريستها وتتحين الفرص لتحقيق مطامعها القديمة في بلادنا العزيزة، وما زالت تدبر الذرائع وتخلق الحوادث وتنصب الشباك حتى استطاعت بعد خمس وسبعين سنة من جلائها عن البلاد أن تحتلها سنة (١٨٨٢م). ومن غرائب القدر أن يكون جلاء الإنجليز في الاحتلال الثاني كان في شهر سبتمبر سنة (١٨٠٧م) ودخولهم القاهرة في الاحتلال الثالث كان في شهر سبتمبر سنة (١٨٨٢م)، فما أعظم الفرق بين التاريخين؛ فالأول يذكرنا بيوم سؤدد وفخار، والثاني يثير في نفوسنا لوعة الأسى والأحزان!

كانت الإسكندرية خلال السنوات السبع الماضية في عزلة عن القطر المصري بعيدة عن نفوذ محمد علي؛ ذلك أن الباب العالي كان يعتبرها تابعة مباشرة لحكمه ولم يكن للولاة ظل من النفوذ فيها، فبقيت على هذه الحال إلى أن جلا الإنجليز عن البلاد وسار محمد علي إليها، فكان هذا الجلاء فرصة سعيدة لبسط نفوذ الحكومة المصرية

(١) سميناه «الثاني» تمييزًا له عن الاحتلال «الأول» الذي وقع سنة (١٨٠١م) في أواخر عهد الحملة الفرنسية، واستمر بعد انتهائها إلى سنة (١٨٠٣م). راجع الجزء الثاني من (تاريخ الحركة القومية) ص٣٣١، الطبعة الأولى. والاحتلال «الثالث» الذي رزئت به البلاد سنة (١٨٨٢م)، ولا تزال تعانيه إلى اليوم (١٩٤٦م) تاريخ إعداد الطبعة الثانية من الكتاب الحالي.

obeikan.com

على ربوعها، ودخلها محمد علي لأول مرة بعد جلاء الإنجليز، وكان يومًا مشهودًا أُطلقت فيه مدافع القلاع والأبراج ابتهاجًا بانضمام الإسكندرية إلى جامعة الوطن.

عودة محمد علي إلى القاهرة

ظل محمد علي في الإسكندرية إلى أن غادرها وسار برًّا إلى رشيد يصحبه حسن باشا، ومن هناك انحدر في النيل إلى القاهرة، وفي طريقه إليها انقلب به مركبه أمام (وردان) فاجتاز النهر سباحة وواصل سفره راكبًا جواده، فكبا به الجواد على غير عادته وسقط على الأرض، فتطيرت حاشية الباشا من الحادثتين، ثم وصل محمد علي إلى القاهرة وبلغها في شهر أكتوبر سنة (١٨٠٧م).

قال الجبرتي في هذا الصدد: «في ثالث شعبان سنة ١٢٢٢هـ (٦ أكتوبر سنة ١٨٠٧م) وصل الباشا إلى ساحل بولاق، فضربوا لقدومه مدافع من القلعة، وعملوا له شنكا ثلاثة أيام، واتفق أن الباشا في حال رجوعه من الإسكندرية نزل في سفينة صغيرة وصحبته حسن باشا طاهر وسليمان أغا الوكيل سابقًا، فانقلبت بهم وأشرف ثلاثتهم على الغرق، وتعلق بعضهم بحرف السفينة، فلحقتهم مركب أخرى أنقذتهم من الغرق وطلعوا سالمين، وكان ذلك عند زفيتة»[(١)].

ولما بلغت أنباء الجلاء عن الإسكندرية إلى الأستانة ابتهج «السلطان محمود» ابتهاجًا عظيمًا؛ لما كان بين تركيا وإنجلترا من العداء في ذلك الحين، فأرسل رسولًا إلى محمد علي يظهر له ابتهاجه ويهدي إليه سيفًا ثمينًا وخلعة، وكذلك أنعم على إبراهيم بك وطوسون بك وحسن باشا وطاهر باشا والسيد عمر مكرم وعابدين وعمر بك وصالح قوش بالرتب والخلع الثمينة.

---

(١) على شاطئ النيل شمالي القناطر الخيرية من بلاد مركز قليوب، وتسمي زفيتة شلقان.

وأعادت الحكومة التركية إبراهيم بك (باشا) إلى مصر، وكان بالأستانة رهينة حتى يؤدي محمد علي الأربعة الآلاف كيس التي التزم بأدائها، فأطلقت الحكومة سراحه إعرابًا على ابتهاجها بانتصار الجيش المصري.

وصفوة القول: إن إخفاق الحملة البريطانية سنة (١٨٠٧م) وهزائم الإنجليز في رشيد والحماد، هي صفحات مجد وفخار لمصر والمصريين.

فتنة الجند وإخمادها (سنة ١٨٠٧م)

كان محمد علي باشا معتزمًا بعد أن تخلص من الحملة الإنجليزية أن يجرد حملة على المماليك في الصعيد ليقضي على سلطانهم به؛ لكنه علم وهو في الإسكندرية أن الجنود قد جنحوا في العاصمة إلى التمرد والفتنة، فرأى أن يدع الحملة على المماليك حتى ينتهي من إخماد فن فتنة الجند.

عاد إلى القاهرة فطالعه الناس بالشكوى من مسلك الجنود وإخلالهم بالنظام، والواقع أن هؤلاء الجنود كان دأبهم النهب والسلب والعدوان على الناس وانتهاك الحرمات والاستهانة بالأرواح والأموال.

وكما كان للزعامة الشعبية الفضل الكبير في إحباط الحملة الإنجليزية كذلك كن لها الفضل من مناصرة محمد علي باشا، ومعاونته على إخماد فتنة العسكر.

كان أولئك الجند آفة على الأمن والنظام، وكذلك كانوا خطرًا على استقرار محمد علي باشا في الحكم، وقد تخلص من العناصر الأكثر نزوعًا إلى العصيان كالدلاة مثلًا؛ فإنه بعد توليته حكم مصر سرَّح معظمهم وعهد إلى فرقة من الأرناءود ترحيلهم إلى الحدود السورية، وفي أثناء جلائهم عن البلاد نهبوا قرى الوجه البحري وعاثوا وأفسدوا، لكن بقيت عناصر الأرناءود من الجنود غير النظاميين وبقية من الدلاة تخل بالأمن وتنزع إلى العصيان، وكانوا كلما نجحوا في فتنة ازدادوا تمردًا وطغيانًا، وكلما

obeikan.com

عادوا من حملة أو تجريدة جاسوا خلال القرى آخذين ما تصل إليه أيديهم بالنهب والسلب.

وقد رأى محمد علي باشا من نزوعهم إلى العسف والاعتداء وانسلابهم إلى الأرياف والعاصمة للنهب والفتك بالأهلين عقب حملة سنة (١٨٠٧م) ما جعله يصمم الرأي على تأديبهم وكبح جماحهم، فلما استقر به المقام في القاهرة اعتزم إنفاذ هذا العزم. وكان ذلك عين الصواب؛ لأن أولئك الجند قد تمادوا في طغيانهم ولم يزعهم وازع من سلطة أو نفوذ حتى تهددوا محمد علي ذاته بالفتك به.

ففي (٢٨ أكتوبر) تجمهرت جموع حاشدة من الجنود الأرناءود وذهبوا بجمعهم وصخبهم إلى سراي الباشا بالأزبكية يطالبون برواتبهم المتأخرة، فلم يجابوا إلى طلبهم ووعدوا بالدفع؛ فلم يرضوا، وأخذوا يطلقون النار من بنادقهم على أبواب القصر ونوافذه، ولما نفدت ذخيرتهم عادوا من حيث أتوا، ولم تمض ثلاث ساعات على هذا التجمهر حتى جاء رهط آخر من الجنود الدلاة وحذوا حذو الأرناءوط في تمردهم وشغبهم، ففزع الناس من هذه الفتنة وخشوا عواقبها وأقفلوا الدكاكين والأسواق، وأغلقوا بوابات الدروب والحارات من الغروب وسهروا خلفها بالأسلحة، فأدرك محمد علي خطر هذه الفتنة، فاحتاط لنفسه قبل أن يصيبه شرها، وكان ذلك من دلائل فراسته وبعد نظره، فإن الجنود المتمردين كانوا قد أجمعوا الفتك به في سرايه بالأزبكية، وكانت هذه السراي مكشوفة للمتمردين، فعقد العزم على مبارحتها إلى القلعة؛ لأنه رآها آمن مستقرًّا ومقامًا.

ففي اليوم التالي (٢٩ أكتوبر) انتقل ليلًا مع صحبه المخلصين له إلى القلعة بعد أن نقل إليها أمتعته الثمينة وخزائنه التي كانت بسراي الأزبكية، وقد تم انتقاله إلى القلعة سرًّا بحيث لم يشعر به الجنود المتمردون، فلما علموا بالخبر ثارت ثائرتهم وأقبلوا ينهبون سراي محمد علي، وتجمهروا في أنحاء المدينة وأطلقوا أيديهم في النهب

والسلب والاعتداء على الناس، واستمرت الفتنة سبة أيام حتى أنست الناس الاحتفال برؤية رمضان.

استفحلت الفتنة واضطربت لها العاصمة وكادت تقضي على الأمن والنظام فيها، فتدخل السيد عمر مكرم والعلماء، واجتمعوا غير مرة؛ طورًا في القلعة، وآونة في بيت السيد عمر مكرم، وآنًا في بيت السيد محمد المحروقي كبير التجار، وبحثوا في خير الوسائل لإخماد الفتنة، فاتفقوا رأيًا على أن تؤدي الحكومة للجنود المتمردين جزءًا من رواتبهم المتأخرة قدروه بألفي كيس، ولما كانت خزانة الحكومة خالية من المال قرروا أن يتحمل الأهالي هذه الإتاوة الجديدة، فوزعوها على التجار والملاك والصناع وأرباب الحرف، وأقنعوا المتمردين بالإخلاد إلى السكينة مقابل هذا المبلغ من المال.

فجبيت الإتاوة، ودفعت للجنود، واستتبت السكينة مؤقتًا على حساب الأهالي، واعتزم محمد علي تلقاء خطورة هذه الفتنة أن يقتص من زعمائها، فقرر نفي «رجب أغا» أحد رؤساء الجند الأرناءود، وأشدهم نزوعًا إلى العصيان، وكان هذا الأغا يعمل من قبل في صفوف محمد بك الألفي رئيسًا لقواته المشاة، فلما مات الألفي جاء إلى القاهرة يصحبه رهط من رجاله وأخذ يعيث فسادًا، فلما قرر محمد علي نفيه استكبر وأصر وأبى أن يذعن للأمر، وامتنع في باب الخلق، وكادت تقوم في المدينة فتنة جديدة لولا أن تدخل في الأمر عمر بك وصالح قوش من رؤساء الجند الأرناءود، فذهبا برجب أغا إلى بولاق وأنفذاه إلى دمياط، فارتحل منها إلى بلاده.

دلت هذه الفتنة على أنه ما دام جيش الحكومة خليطًا من تلك العناصر المتمردة النازعة أبدًا إلى الإخلال بالنظام، فلا يستقر الأمن في البلاد، ولا تستقيم شئونها، ومن هنا خالجت محمد علي فكرة التخلص من الجنود غير النظاميين وإنشاء جيش جديد أساسه الطاعة والنظام للرؤساء، وأخذ يتحين الفرص لإنفاذ فكرته، فكان من وسائل تحقيقها إرسال أخلاط الجيش غير النظامي إلى الحملات البعيدة في الحجاز والسودان،

وبذلك أخذ يتخلص منها تدريجًا تمهيدًا لتأسيس الجيش المصري النظامي كما سيأتي بيانه.

obeikan.com